

(حكاية كتاب) اسمي الحركي فراشة

مهند عبدالحميد
"نقلًا عن جريدة الأيام"

(ترمي بشرر) الرواية التي فازت بجائزة البوكر العربية للعام 2010 للأديب السعودي عبده خال، تنتقد بشدة تعنت رجال "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في تعاملهم مع المواطنين داخل المملكة العربية السعودية. تتحدث الرواية عن تبني هؤلاء لفلسفة اجنثا، واعتقادهم بأنهم دولة داخل الدولة، وترى أن مطاردة الحياة الطبيعية بهشم الناس ويحول حياتهم إلى خراب نفسي واجتماعي، ويتولد عن ذلك نوع من الكسور الاجتماعية التي تنتج تشوهات تستشري بين الناس وتحول البعض إلى منحرفين أو إرهابيين. ربما كانت المعالجة الجريئة لتلك الظاهرة وراء فوز الرواية بالبوكر، الجائزة الأهم عربياً .

في قندهار - أفغانستان، رشق راكبو دراجات نارية بالأسيد فتيات أفغانيات مع معلماتهن وهن في طريق عودتهن من المدرسة. التهمة هي الذهاب إلى المدرسة ومخالفة قرار طالبان الذي يحظر على جميع البنات الذهاب إلى المدارس. في إحدى مدارس دمشق الحكومية هاجمت الطالبات معلمة الموسيقى بألفاظ التكفير والتهديد والوعيد. وفي محافظة طوباس سحبت مديرية التربية والتعليم كتاباً موجهاً لليافعين بعنوان "اسمي الحركي فراشة" للكاتبة أحلام بشارت، الصادر عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي دون تحديد أسباب. علماً أن لجنة القراءة في وزارة التربية والتعليم أقرت الكتاب ووافقت على توزيعه في المدارس. وكانت وزارة التربية والتعليم في حكومة "حماس" قد أصدرت قراراً يقضي بإتلاف كتاب "قول يا طير" التراثي الشهير، لأن فيه بعض الجمل والمصطلحات التي تخدش الحياء!

ما هو مشترك في الأحداث السابقة هو اضطلاع أفراد ومجموعات وقوى بتحديد معيار أو تفسير حصري للأخلاق وللدين والسعي لفرضه على المجتمع، واعتبار تلك المواقف غير قابلة للنقاش والاجتهاد كونها حقيقة مطلقة وتفسيراً وحيداً للدين.

قد تختلف حادثة سحب قصة "اسمي الحركي فراشة" من مدارس محافظة طوباس عن أحداث قندهار ودمشق وما تفعله هيئة الأمر بالمعروف في المملكة السعودية، من زاوية المستوى الإرغامي والعنفي الأقل، لكنها تتفق مع تلك الحوادث من ناحية إقامة النظام باليد وفوراً. لا يحق للتربية في طوباس أن تكسر قرار لجنة القراءة في وزارة التربية والتعليم، التي أقرت الكتاب بعد أن محصته. ويعتبر سحب الكتاب تمرداً على قرار الوزارة من جهة، وتقديم نموذج متناقض مع أهم مبدأ للتربية والتعليم وهو احترام النظام والحفاظ عليه من جهة أخرى. إن سلوك "تربية" طوباس يشرع لكل من لا يعجبه قرار أو سياسة تربوية أن يتمرد عليها أو يرفضها. بل إن قرار تربية طوباس يفسر لماذا لا يلتزم مدرء المدارس بالنشيد والعلم، ويفسر عدم الالتزام بالزي المدرسي وفرض زي آخر، وعدم الالتزام بدروس الموسيقى واعتبارها حراماً.

من حق "تربية" طوباس أن تقدم ملاحظات وأن تقدم رأياً وتقتراح أفكاراً حول الكتاب وأي شيء آخر، ولكن على قاعدة الالتزام بالقرار والشروع بتنفيذه، وهذا للأسف لم يحدث، بل حدث العكس عندما قام مكتب التربية بسحب الكتاب من طرف واحد دون العودة للوزارة. وجاء توقيت هذه الحادثة بالتزامن مع إعلان رئيس الحكومة د.سلام فياض عن ميثاق شرف يصون حرية التعبير والإبداع في يوم الثقافة الوطنية 3/13. حسناً فعلت وزارة التربية والتعليم عندما تدخلت وأعدت كتاب "اسمي الحركي فراشة" إلى مدارس محافظة طوباس، لكن هذا لا يحل المشكلة التي قد تتكرر في موقع آخر، إذا لم تتم مساءلة ومحاسبة الذين اتخذوا القرار، وتحديد المسؤولية عن هذا النوع من الاختلال الذي يهدد نظام التربية ويشوش النموذج التربوي ويضعف هيئته. إن سحب الكتاب يشكل مساً بالكاتبة أحلام بشارت التي قدمت عملاً تربوياً مبدعاً شديداً الأهمية، دخلت فيه عالم الطفولة وطرحت الأسئلة الصادقة والجريئة، فالإنسان يولد من الأسئلة كما يولد الكنكوت من البيضة. "اسمي الحركي فراشة" سجل أطفال مع أطفال يخلو من الخطابة ويبتعد عن الخطاب النمطي الذي يقدم أطفالاً بلا طفولة، عمل يعود

بنا إلى الطفولة وما تحويه من براءة وتساؤل ومعرفة وخيال. قصص أحلام بشارات تحكي عن حاجة الأطفال إلى الحب والعاطفة، تدخل إلى خيال الأطفال وتتوقف عند مشاكلهم النفسية والاجتماعية، وعند ذكاء الأطفال وميلهم الفطري للمعرفة. وسحب الكتاب يشكل مسأ بالكتّاب زملاء وزميلات أحلام، فما يتعرض له كاتب من إساءة أو انتهاك يصيب الآخرين. وقد تداعى عدد لا بأس به من الكتاب والكاتبات للتضامن مع الزميلة أحلام، لكن التحرك توقف بعد أن أعادت وزارة التربية الكتاب إلى المدارس.

هل توقف مكتب التربية في طوباس عند المضمون التربوي لكتاب "اسمي الحركي فراشة"؟ الجواب لا، لأن مسؤولي التربية توقفوا عند بعض المسميات واعتبروها مخلة من وجهة نظرهم. للأسف فإن مكتب تربية طوباس لم يقل لماذا سحب الكتاب، وهذه نقيصة إضافية، فكان ينبغي تحديد الأسباب بصراحة وعدم ترك القراء، وبخاصة الإعلاميين، للتنبؤ بالأسباب. أنا بدوري كنت قد قرأت العمل عندما كان مخطوطاً وشاركت في مناقشته في مؤسسة تامر، وعدت لقراءته بالأمس كي أعرف لماذا سحب، لأنفق مع زميلاتي وزملائي الإعلاميين الذين أثاروا الموضوع، وبخاصة الزميلة نائلة خليل التي حملت على عاتقها متابعة المشكلة إعلامياً حتى النهاية نصف السعيدة. ما ورد في قصص أحلام بشارات عن الولادة والحمل والجهاز التناسلي أقل بكثير من النص الموجود في الكتب المدرسية لمادة الأحياء، ولا يتعارض مع ضرورة التعرف على الجسم ووظائف الأعضاء البيولوجية بشكل علمي، ولا مع أهمية أن يعرف كل طفل مكونات جسمه وأهمية كل عضو وخصائصه ووظائفه. نحن بحاجة إلى أكثر بكثير من التعريف الخجول بالجسم، لأن ذلك يرتبط بالنمو النفسي والجسدي والعقلي السوي أو غير السوي. وإذا لم نعلم بتعريف الطفل بخصائص النمو وبما يحدث بداخله من تغييرات جسمانية وفسولوجية بالتدرج، فإن الطفل دائم البحث عن الغريب والمجهول سيجد طريقه الخاصة للمعرفة والتي تنعكس سلباً على تكوينه.